

النقد والمثال

الجمال الزائى فى بعض المعانى البسيطة

للأستاذ أحمد الزين

تحدثتُ فى الفصل السابق عن نوعى المعنى الأصلي والشعرى ؛ وقلت فى المعنى الأول : إنه أول ما يخطر على الخاطر ، وتحدثت به نفس الشاعر ، وذكرتُ أنه لا يسمى شعراً ، وليس من الشعر فى قليل ولا كثير ، وبيّنت المعنى الثانى الذى تصرف فيه الملكة الفنية بإضافة شئ من المحسنات الشعرية اليه ، وقلت : إنه هو الذى يمدُّ من مقومات الشعر وعناصره ، ومثلت لكلا المعنيين بما فيه الكفاية من شعر القدمين والمحدثين

وأقول فى هذا الفصل :

إن بعض هذه المعانى الأصلية التى لم تتصرف فيها ملكة الشاعر قد يكون الحسن فيها أصلياً ، والجمال فيها من ذاتها ، فلا تتصرف فيها ملكة الشاعر تصرفاً كثيراً ولا قليلاً ، ولا تتكلف فيها تحسناً ولا تجميلاً ، بل إن تصرف الشاعر فيها قد ينقص من جلالها ، ويشوه من جمالها ، ويوجب هذه الطبيعة الجميلة بثوب من التكلف يحول بينها وبين مشافهة الأذواق بجمالها ، ومباشرة الاحساسات بتأثيرها ؛ فعلى أشبه بقانيات أبى الطيب اللاتى استغنيين بما فيهن من جمال مطبوع ، عما يكسبنه الافتتان فى الزينة من جمال مصنوع إذ يقول :

حسن الحضارة مجلوبٌ بتطرية وفى البداءة حسنٌ غيرٌ مجلوب
أفدى ظباء فلاق ما عرفت بها

مضغ الكلام ولا مبيع الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة أردافهن سقيلات المراقيب
ومن هوى كل من ليست بموهبة تركت لون مشيبي غير مخضوب
وليس على الشاعر فى أمثال هذه المعانى إلا ما يتعلق بالمباغة البيانية ، من عذوبة العبارة ، ورقة النسيج ، وشرف الألفاظ ، واختيار الأسلوب لللائم لفرض الشاعر ، وما إلى ذلك مما يتصل بالألفاظ والمباريات ، دون المعانى والأغراض ، وإنما يكون هذا

الجمال الطبى فى المعانى البسيطة إذا صدرت عن عاطفة قوية فى النفس ، وتحدثت عن ينبوع صادق من الحس ، وكانت سؤراً دقيقة للشعور الصادق فى القلب الخلقى ، فهناك لا يمد الشاعر إلا لساناً ناطقاً ، لا مبتدعاً خالقاً

وترى هذه المعانى الجميلة بطبيعتها مستفيضة شائعة فى شعر الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين إلى أواسط العصر الأموى ، وإنما استفاضت هذه البساطة فى شعر الأمويين اقرب عهدهم بميش البساطة فى البادية ، ومشافهة الطبيعة فى صحراء الجزيرة ، فعم رغم تفرقهم فى الممالك التى فتحوها وانتشارهم فى الأمصار التى مضروها ، ومفارقة الفطرة فى بواديهم ، لم يزل صوتها يناديهم ، فيجيبونها فى أشعارهم بالبساطة فى معانيهم وأفكارهم

وانك لتستجلى ذلك فى شعر النسيب وما هو بسبيله ، من الحنين إلى الأوطان وما قضاه الشاعر فيها من لبانات وأوطار وما لقيه بعد فراقها من يحزن وآلام وذكريات الشباب الزائل ، وما كان فيه من لهو وباطل ، ونفور الحسان من هذا الشعر الأبيض الذى يقضى الميول ، ويذهب بالهوى والفنون ، كما ترى هذه البساطة الفاتنة فيما تقرأه أوائل قصائدهم فى صفة الديار والأطلال ، وما فعلت بها الرياح والأمطار ، وما بقى فيها بعد من رحلوا عنها ، وتحديد مواقعها بين الأمكنة التى تتصل بها أو تقرب منها

وترى ذلك أيضاً فى شعر الذكريات حين تنزل بالشاعر محنة من سجن أو إمسار فيعزى نفسه عن تقييد ساقيه بإطلاق فكره فى تذكر أيامه الذهبية ، ولذاته الفاتنة ؛ وذكر ما كان يحضره من مجالس الشراب والقيان ، وبقائه رغم القيد على الوفاء لمن كان يجالسه من النداء والصحاب ، وإقدامه فى القتال ، وصبره على مقارعة الأقران ثم يأخذ فى الافتخار بقومه وعشيرته ولومهم على تركه لأعدائه ، وبطشهم عن فدائه ؛ كل ذلك فى حمرة وألم يفران الضلوع ، ويحترقان الدموع

وأنا أعرض عليك فى هذا الفصل أمثلة يسيرة لما ذكرت مما اخترته من حفظى

أما جمال هذه البساطة فى النسيب ، فكقول المتنون « وهو

من أصوات الأغاني »

وماذا عسى الواشون أن يتحدوا

سوى أن يقولوا إني لك طاشق

لقد صدق الواشون أنت حبيبة

إلى وإن لم تصف منك الخلائق

ووجه الجمال في هذا الشعر مخالفة الشاعر غيره من المحبين باحتقاره الوشاة ، وعدم استحقاقهم لتكلف المصانعة والمدارة وهو بذلك يصف حبّه بالنقاء من الريسة ، وأنه أسمى من أن يمتدح بحيلة ، وأشرف من أن يُعَمِّل في إخفائه الوسيلة ثم انظر إلى سحر هذه البساطة في مد ذلك وتصوير الخوف من الوشاة والارتياح من مقالهم ؛ وشكوى الشاعر إلى حبيبته قلة الرسل إليها ، وأن الحيل قد أعوزته في لقائها ، ثم إشارته بمد ذلك إلى عتابه عليها ، وضراعه إليها ؛ كل ذلك في بساطة ساحرة وجمال رائع يشبه جمال الأزهار التي كستها الطبيعة من ألوانها الفاتنة ما تقصّر عنه ريشة الفن بما تزوره من أصباغها الحائلة

أريد شعر يزيد بن الطّائفة حيث يقول :

أيا خلة النفس التي ليس دونها لنا من أخلاء الصفاء خليل
أما من مقام أشكى غربة النوى وخوف العدا فيه اليك سبيل
قدبتك ، أعدائي كثير ، وشقتي بعيد ، وأشياعي لديك قليل
وكنت إذا ماجئت جئت بملة فأفنت علاقي فكيف أقول
فما كل يوم لي بأرضك حاجة ولا كل يوم لي اليك رسول
صحائف عندي للعتاب طويها ستشر يوما والعتاب طويل
فلا تحملني ذنبي وأنت ضميعة فحمل دى يوم الحساب ثقيل
ومثل هذه البساطة الساحرة ما تراه في شعر عبد الله بن الدُمَيْثَةِ حيث يقول :

ألا لأرى وادي المياه يثيب ولا النفس عن وادي المياه تطيب
أحب هبوط الراديين وإني لشهر بالراديين غريب
أحقا عباد الله أن لست واردا ولا صادرا إلا طي رقيب
ولا زارا فردا ولا في جماعة من الناس إلا قيل أنت مربيب
وهل ريسة في أن نحن نجيبة إلى إلها أو أن نحن نجيب
أما جمال هذه البساطة في معاني الحنين إلى الوطن فمن أحسن

ذلك قول بعض الأعراب :

أحب بلاد الله ما بين منيع (١)

إلى وسلمى (٢) أن يصوب سحابها

بلاد بها حل الشباب تماثي وأول أرض مس جلدي ترابها

وقول عبد الله بن نمير :

نمز بصبر لا وجدك لن ترى

عراض الحمى لإحدى الليالي التوابر

كان فؤادي من تذكره الحمى وأهل الحمى بهفو به ريش طائر

وقول الصمة بن عبد الله القشيري :

قفا ودعا نجيذا ومن حل بالحمى وقل لنجد عندنا أن يودعا

بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربى

وما أحسن المصطاف والتربما

ولست عشبات الحمى برواجع عليك ولكن خل عينيك تدمعا

وأذكر أيام الحمى ثم أثنى على كبدي من حشبة أن تصدعا

فهل ترى أحد هؤلاء الشعراء الثلاثة قد زاد في هذا الحنين

على ما يتحدث به اليك متحدث نأى عن بلده ، وفارق أهله

وعشيرته ، من الحنين إليهم ، والألم لفراقهم ، وتذكر ما مضى له

من عهود ، وزمن لا يعود ، وتغنيه العودة إلى وطنه معني اليأس

من الأمنية ، وتأميله الرجوع إلى بلده تأميل من يثق بالخطية

ويوقن بامتناع الأمل واجتهاده في الدعاء له وتوديعه لياه ، وتفديته

بالنفس ؛ فلم يخترع أحدهم في الحنين معني جديدا ، ولم يفكر

تفكيراً بعيداً ، ولم يُشْرِب في خيال ، ولم يبالغ في تصوير ما يشعر

به من ألم الفراق ، ووحشة الغربة ، ولم يُثْقِل شعره بالمجازات

والاستعارات ، ولا يشوب من تلك الحللى الظاهرية الرائجة على

الحاجة في هذه الممانى وأشباهها

ولما كان هذا الشعر خطاباً صادراً عن نفس الشاعر منبشاً

عن عاطفته كان لا بد من مشافهته لنفس السامع ومباشرة لها ،

ولا نزاع في أن إنقاله بتلك الحللى الظاهرية من الاستعارات

والمجازات مما يحول بين معانيه ومشافهتها للنفس ، ويباعد بينها

وبين الحس ، ويجعلها أشبه بالقناء الجليل تسمعه بواسطة (الحاكي)

(١) منيع : واد يأخذ بين حفر أبي موسى والناج

(٢) وسلمى : أحد جبال طي ، والجبل الآخر أجا

قانه لا ينال من نفسك ما يناله الفناء للشافه

وفي هذه الأمثلة التي رويتها لك فوق البساطة الساحرة في معانيها من رقة الأسلوب اللامع لمعان الحنين ، وعذوبة العبارة ، وحلاوة الألفاظ - وهي كل عمل الشاعر . في أمثال هذه المعاني - ما يثير الشجن ويوقظ الهمومة ، ويجتذب قلب السامع إلى قلب الشاعر حتى يصيرا قلباً واحداً متحد الاحساس ، متفق الشعور ، حتى يخيل للسامع - وهو في وطنه بين أهله وعشيرته - أنه غريب عنهما ، وأن النوى قد قذفت به إلى مكان سحيق ، فهو يشكو الغربة كما يشكو الشاعر ، ويتمنى العودة كما تمنىها ، وقد كان بعض علماء الأدب للتقدميين ينشد أبيات الصمتة بن عبد الله السابقة على تلامذته في مسجد الكوفة ، ثم يبكي حتى تحصل لحيته ، ويقول : ما أصلب أكبادكم ! ألا تكون عشيات الحى ؟ وسرّ الحال في هذه المعاني مشافهتها للعاطفة ودخولها إلى النفس الانسانية من ناحية الضعف للوجوب للمواساة والرحمة ؛ وتقودها إلى إحساس المطف الشترك بين الأسرة البشرية الباعث على للمشاركة في الألم والحننة . أما بساطة هذه المعاني في أشعارهم إذا بكوا الشباب وعنده ، وذموا للشيب ووقده ؛ ووقفوا على الأطلال والديار ، فلا أريد أن أطيل عليك في هذا الفصل القصير بذكر أمثلتها ، فإن ذلك مستفيض شائع في كلامهم بل هو جليل شمرم ، وأكثر ما يبدأون به قصائدهم ؛ فلا تكاد تجد قصيدة لأحدهم مهما يكن غرضها من دعة جارة يذريها الأسف على شباب ذاهب والارتياح من مشيب طارد ، والوقوف على طلل ماحل ، ورسم حائل ، وذكر ما قضاه الشاعر في أضياء هذه الرحاب وأكناف هذا الجنب ، من أيام عذاب وليال قصرتها متع الصبا وهو الفتوة إلى غير ذلك

وللمهم جروا على ابتداء قصائدهم بهذه المعاني وتقديعها على الترض للقصود بالشمر لتحريك القرائح الراكدة ، وإيقاظ الشاعرية الراقدة ، وتنبيه الأذهان التي قد تنفوس ، واقتياد الأفكار التي قد تمزب ؛ ولما كانت هذه المعاني معروفة لديهم ، مبيدة طرقها لهم ، محفوظا أكثرها عندهم ، كانت تجربة قرائحهم فيها أيسر ، وتنشيط شاعرهم في ميدانها أسهل ، كما يجرب الجواد باجرائه شوطاً قبل الانظام في الحلبة ، وكما ترى أرباب الموسيقى إذا

قصودوا إيقاع إحدى النغمات ، أوقفوا على الأوتار ما يقاربها من التبرات حتى يسهل عليهم الخروج منها إلى النغمة المقصودة أما روعة هذه المعاني في قصائد الذكريات إذا نزلت بالشاعر عننة من سجن أو إسمار ، فأما أذكر لك أمثلة منها لقلها وانتثارها في كتب الأدب ، وصعوبة الظفر بها في دواوين العرب ، وأكثرها من شعر لصوص البادية والمغربين على أموال القبائل وهم أفصح العرب شعراً ، وأصرحهم عربيّة ؛ وكان بعض علماء الأدب المتقدمين وأحسبه الأسمى يقول : « إذا أفاك بيت لص فاحتفظ عليه » وذلك لاخلادهم إلى سكنى البادية ، وعدم اتصالهم بالحضر

ومن أحسن ذلك شعر عبد بنوث بن وقاص الحارثي ، وكانت تيم قد أسرته وشدوا لسانه ، فقال من قصيدة
ألا لائلوماني كفى اللوم مايا فالكا في اللوم خير ولايا
أيا راكبا إنا عرضت قبلنن ندامي من نجران ألا تلاقيا
أقول وقد شدوا لساني بنمة^(١)

أمشر تيم أطلقوا عن لساني
أحقا عباد الله أن لست سامعا^(٢)

نشيد الرعاء معز بين المتالبا
وقد علمت عرس مليكة أني أما الليث معدوا على وعاديا
وقد كنت نحرار الجزور ومعميل
على وأمضي حيث لحي ماضيا
وأحمر للشرب الكرام مطي وأصدع بين القيتين ردائيا
وكنت إذا ما الخيل شمها القنا لبيقا بتصرف القنات بنانيا
كأن لم أركب جوادا ولم أقل خيل كرى نفسى عن رجاليا
ولم أسبا^(٣) الرق الروى ولم أقل

لأيمار^(٤) مدق أعظموا ضوء ناريا
ولئك لتقرأ هذا الشعر بيتا بيتا فلا ترى ملكة الشاعر قد
تصرفت في هذه المعاني البسيطة القاتنة ببساطتها تصرفا قليلا

(١) النمة : سير عريض من جلد ينسج على هيئة أغنة الثمال

(٢) للتل من الابل : الأمهات إذا تلامها الأولاد الواحد بعد الآخر

ومتلة . ومعنى إعزاز الرعاء لها : أنهم يمدونها في للرعى

(٣) أسبا ، أى اشتقى

(٤) الأيمار : الذين يضربون القفاح في اللير